حول جزيرة العرب

نظر تاريخي اجتماعي للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

اليمن وائمتها

نظر في احوال اليمن قبل الاتراك

دعنا الان ننتقل من اواسط جزيرة العرب الى جنوبها ونسرّح رائد البصر في احوال اليمن فانّ هناك ايضاً معمّيات يردّ القراء الوقوف على حقيقتها وكثيراً ما كرّرت الصحف اسم إمامها يحيى

هذا القطر الكبير قد لعب في كلّ اطوار تاريخه دوراً ذا شأن وذلك لعدّة خواصّ امتاز بها كحسن موقعه وسعة ارجائه وطيب هوائه وعمران بلدانه وكثرة خيراته ونموّ عدد اهله البالغين ستّة ملايين من النفوس مع اختلاف مناطقه من جبال شاهقة واودية عميقة وسواحل وثغور بحريّة فاستحقّت اصقاع اليمن ان يدعوها القدماء باسم العربيّة السعيدة . وكان العرب يقسمونها الى نيّف وعشرين ايالة يدعونها بالمخاليف كالمتصرّفيّات في ايّام الاتراك وكانت السير معدودة من اليمن قبل ان تفصلها عنها الدولة العثمانية فجعلها سنجقاً منفرداً

وقد عُرف اهل اليمن منذ سالف الازمان بالإباء وحبّ الاستقلال والنفور من كلّ سلطة اجنبيّة كما يشهد عليه تاريخهم في الجاهليّة على عهد ملوك حِمْيَر ثم توالت عليهم الدول بعد الاسلام وكثر بينهم الخوارج

وكان الحكم فيهم اوّلاً للخلفاء لشدّة وطأتهم الى ان اخذ حبلُ الخلافة بالانتقاض فاستقلّ اليمنيّون وتولّى عليهم الزياديّون نسبةً الى محمّد بن زياد من السنة ٨١٩ الى ١٠١٨م وابن زياد هو الذي عمّر مدينة زَبيد وسكنها (سنة ٨٢٠) ثم خلف الزياديين النجاحيّون (١٠٢١ — ١١٥٨م) المنتسبون الى المؤيّد نجاح الحبشيّ الاصل.

ثمّ صار امرهم الى المهديين المنتسبين الى علي ابن المهدي (١١٥٠ – ١١٧٣م) ثمّ الى الايوبيين من نسل صلاح الدين الايوبي (١١٧٣–١٢٢٨م) ثم الى السلالة المعروفة بالرسوليين (١٢٢٩ – ١٤٥٤م) ثم الى بني طاهر الى السنة ١٥١٧ وهي السنة التي دخل فيها السلطان سليم بلاد العرب . وكلّ هذه الدول جعلت كرسيّها في زبيد

وكان غيرهم يتولّون على جهات اخرى من تلك البلاد فاتّخذوا مدينة صنعاء كحاضرة ملكهم منهم اليعفوريون نسبةً الى يعفور بن عبد الرحمان اوّل ملوكهم (٨٦١ – ٩٥٦م) والصليحيّون المنتسبون الى علي بن محمّد الصليحي (١٠٣٧– ١١٠١م) والحمدانيّون التابعون لحاتم بن غشيم الحمدانيّ (١٠٩٨ – ١١٧٣م) . وملكَ قسمٌ آخر على عدن واصقاعها وهم الزريعيّون المنتمون الى كرم الزريعيّ (١٠٨٣ – ١١٧٣م) . وملك غيرهم في صَعدة وهم الائمّة الرسّيّون تبعة قاسم بن محمّد الرسّي احد الخوارج في ايّام الخليفة المأمون العبّاسيّ من سلالة زيد بن علي بن الحسين بن عليّ بن ابي طالب المعروف بابن زين العابدين الذي صُلب بامر الخليفة هشام سنة ٧٣٩ م ومن جرّاء ذلك يُدعون بالزيديين

وينتسب الى هؤلاء الزيديين ائمّة صنعاء المتولّين الى اليوم . والزيديّون من اهل الشيعة لا يعترفون بخلافة ابي بكر وعمر وعثمان بل بخلافة علي وسلالته . ومنهم عدّة فِرَق كالبتريّة والسليمانية والجارودية واليعقوبية يناقض بعضهم بعضاً ومنهم من يرى رأي المعتزلة . وائمّة صنعاء يتلقّبون بامراء المؤمنين ويضربون النقود باسمهم ولهم رايةٌ حمراء عليها صورة ذي الفقار سيف علي بن ابي طالب

ولمّا ظهرت الدولة العثمانيّة في القرن السادس عشر واستولت مدّةً على اليمن لم يتهنّأ بنو عثمان بملكهم واضطرّوا غير مرة الى ان يبارحوا البلاد لعصيان اهلها على ولاتهم منتصرين لائمّة صنعاء الذين كانوا لا يزالون يطالبون بحقوق الامامة حتّى ظفروا بها زمناً طويلاً (١٥٩١– ١٨٣٠م) . واوّلهم الامام قاسم بن منصور من سلالة الرسّيين السابق ذكرهم . ثم انتقلت الامامة الى زعماء آخرين منهم الامام يحيى الآتي ذكره

على انّ سلطة ائمّة صنعاء ربّما ضعفت فقام عليهم شرفاء من اهل وطنهم انتزعوا منهم قسماً من بلادهم فملكوا عليها مدة كسلطان لحج وشرفاء ابي عريش وشيوخ

عسير وربما نازع سكانُ جنوب اليمن اهلَ شمالهِ فقامت بينهم الحروب وتفاقم الفساد

اليمن والوهابيون (١٨٠٥ — ١٨١٣)

قد سبق لنا القول ان الوهابيين في اوائل القرن التاسع عشر تجاوزوا حدود نجد في ايام اميرهم سعود وعبد العزيز وتهدّدوا الحجاز واليمن ولم يلبثوا ان استولوا على قسم كبير من اليمن دون صنعاء. وذلك سنة ١٨٠٥ تحت امرة شيخ عسير ابي الحكل المعروف بابي نقطة لعور عينهِ. وكان ابو نقطة انحاز الى الوهابيين فأطلقوا يدهُ على اليمن فغزا جهاتها الجنوبية وفتح مدينتي لحيّة وحديدة

وانما تصدّى له احد شرفاء اليمن المدعو ابا مسمار حنّودًا كان ابو نقطة فتك به لكنّ حنّودًا تظاهر بالخضوع لامير الوهابيين ومن ثمَّ اخذ يعادي شيخ العسير ابا نقطة ولم يزل يعاكسهُ حتى تمكّن من اغتيالهِ فقتلهُ بيدهِ سنة ١٨٠٩ وبسط حكمهُ على اليمن فحظي اليمن ببعض الراحة

المصريون في اليمن (١٨١٣ — ١٨٤٠)

لما تحفّز محمّد علي باشا ثمَّ ولداهُ طوسون وابرهيم لمحاربة الوهابيين باغراء سلاطين عثمان وجّه المصريون فكرتهم الى اليمن فضلًا عن الحجاز . وفي السنة ١٨١٣ بعث محمد علي الى اليمن احد ضبّاطهِ المسمّى آغا يوسف . فاجتمع هذا بالشريف حنّود وبالامام منصور صاحب صنعاء واقنعهما بقاتلة الوهابيين مع الجيوش المصرية

فساروا معًا وحملوا على خلف ابي نقطة الشيخ تهامي وانتزعوا من يدهِ مدينة قنفذة الساحلية ففتحوها لكنّ الشيخ تهامي عاد اليها بجموعهِ فاسترجعها منهم . فلمّا بلغ الخبر الى محمّد علي زحف الى المدينة بقوّات جديدة فغلب الوهابيين مع ما اباوا بهِ من البلاء الحسن للمدافعة عن البلدة ووقع الشيخ تهامي في يد المصريين فارسلوهُ مخفورًا الى الاستانة فقتل فيها سنة ١٨١٥

وبقي النفوذ المصري عدّة سنين سائدًا على اليمن حتى قام سنة ١٨٣٢ احد المماليك من رعايا محمّد علي فعصى على سيّدهِ وهيّج عليهِ قبائل عرب اليمن . وقد عُرف هذا الخارجي بلقب تركي ثم دُعي لجهله اللغة التركيّة باسم « تركجه بلمز »

فالمذكور استولى على مخا وحديدة فاضطرّ محمّد عليّ الى ان يوجّه من مصر جيشاً لمحاربته ففتح المصريون بمساعدة شيخ العسير عليّ حجتن مدينة مخا ونهبوها . اما زعيم الفتنة ففرّ هارباً من ايديهم والتجأ الى سفينة انكليزية وسافر الى العراق حيث مات خامل الذكر

ثمّ اجتهد المصريون ليوطّدوا ملكهم في اليمن لكنهم وجدوا في اهلها من فظاظة الاخلاق والدسائس والفتن ما اخرج صدورهم والجأهم الى ان يُجلوا عساكرهم اولاً من عسير ثم من تهامة وباقي اليمن سنة ١٨٤٠ وحصل على اثر جلائهم اضطرابات في انحاء اليمن وانتهز الانكليز تلك الفرصة ليبتاعوا من سلطان لحج مدينة عدن وهي مقلاد بحر الهند سنة ١٨٣٩

وفي تلك الاثناء حاول امام صنعاء السيد محمّد يحيى ان يستولي على تهامة ويردّها الى سلطانه فحمل عليها واحتلّ معظم مدنها كالحديدة وزبيد ومخا ونازعهُ شريف مكّة في ملك مخا ففتحها واخذها بالحجاز

وقام ايضاً شيخ ابي عريش المسمّى بالشريف حسين طامعاً في توسيع نطاق ولايته فاتفق مع شيخ عسير وسار كلاهما بقبائلهما الى تهامة وانتشلوها من ايدي امام صنعاء

الدولة العثمانية في اليمن

ثم قويت شوكة الشريف حسين في انحاء اليمن وعجز امام صنعاء عن قمع سلطته بعد ان ناجزهُ القتال مدّة فسيّرت حينئذ الدولة العثمانيّة لمحاربته فيلقاً من جنودها في عام ١٨٤٩ يقودهُ توفيق باشا فلم يزل يتعقّب آثار الشريف حتّى اضطرّهُ الى طلب الامان والاذعان الى اوامر السلطان فخلع عليه وجعل له راتباً يقي في حيز المواعيد العرقوبيّة . واذ اراد ان يطالب بحقوقه شاع بغتة خبر وفاته والله اعلم بسببها (١٨٥١)

فتقلّدت حينئذٍ الدولة امارة ابي عريش الشيخ حيدر ابن اخي الشريف حسين وادخلت بلاد تهامة في جملة ممالكها وعيّنت لتدبيرها احد عمالها من الباشوات فجعل مركزهُ في الحديدة

ثمَّ رأى توفيق باشا ما صار اليه ائمّة صنعاء من الضعف فظنَّ الوقت مناسباً ليلحق بلادهم بأملاك الدولة فاستدعى الامام محمّد يحيى الى الحديدة وطلب منهُ ان يعترف بسيادة السلاطين على اليمن وان يرضى باقامة ٨٠٠ جندي تركيّ كحامية في صنعاء وان يُدعى في الصلاة باسم السلطان عبدالمجيد وان تقسم مداخيل صنعاء بين الخزينة السلطانيّة وولاية صنعاء . فخاف الامام ولم ير بُدًّا من الاجابة الى اوامر توفيق باشا فوقّع على تلك المعاهدة

لكنَّ اهل صنعاء لم يرضخوا لهذه الاحكام وما كادوا يقفون على مضامين المعاهدة ورأوا إمامهم في صحبة توفيق باشا والجند العثمانيّ ولاسيَّما اذ سمعوا الخطيب يدعو في الصلاة للسلطان عبدالمجيد بدلًا من ائمّتهم الزيديين حتَّى شغبوا وثاروا وقتلوا الجنود وخلعوا الامام محمّد يحيى ونصبوا بدلًا منهُ الامام منصورًا . ولم ينجُ من ايديهم توفيق باشا الَّا بعد ان أصيب بعدَّة جراح وفدى نفسهُ بعشرين الف ريال

وبقيت صنعاء في حالة الفوضى بعد ان قاموا على الامام منصور ودعوا مكانهُ غالباً بن محمّد يحيى لكنَّ امورهم لم تستقم فكثرت بينهم الاحزاب وزاد الاضطراب وتعدَّدت الجنايات حتَّى ملَّ الجميع تلك الاحوال السيئة وتيسَّر للدولة العثمانيَّة فتح صنعاء سنة ١٨٧٢ على يد احمد مختار باشا فقامت بتدبيرها كما شاءت وخلعت الامام غالباً واقرَّتهُ في صنعاء مع راتب معلوم الى سنة وفاته . وكان رؤوف باشا سبق واستولى على العسير فصارت اليمن كلها تحت حوزة بني عثمان

ثورة محمد الدرهم الى الامام يحيى

اعاد الاتراك النظام في صنعاء اليمن فأخلد اهلُها الى الطاعة والسكينة لكن عمّال الدولة ما فتئوا ان هيَّجوا عليهم خواطر السكّان بظلمهم وسوء تصرّفهم الى ان طفحت الكأس وبلغ السيل الزبى وذلك للضرائب الفادحة التي بهظوا بها اعناق اليمنيين ولاسيَّما في سنتين توالى فيهما الجدب فلم يستطع الاهلون الى أدائها سبيلًا .

وكان في جملة الذين اصابهم عسف الاتراك رجلٌ من ذرّيَّة ائمّتهم يُدعى السيّد محمّد بن حميد الدين كان اوَّلًا مسجّلًا في الديوان ثم صار قاضياً ولمَّا رأى ما لحق بمواطنيهِ من الجنف والظلم خرج من صنعاء وسكن في الجبال في مقرّ يدعى غفلة

القدر لا ماء فيه بحيث لم يستطع الاتراك ان يحاربوهُ فدعا اليمنيين الى الاستقلال فلبّوا دعوتهُ بطيب الخاطر واقرّوا بسيادته فنشر معهم راية العصيان على الدولة (١٨٩١) واخذ يشنّ الغارات على مواقع الاتراك ويقوّي كلّ يوم سلطتهُ والدولة ترسل شراذم الجند عليه دون جدوى وبقي على ذلك نحو عشر سنوات فمات سنة ١٩٠١ دون ان يدخل صنعاء

الامام يحيى

قام في منصبهِ بعدهُ ابنهُ الامام يحيى وعمرهُ لا يتجاوز ٢٧ سنة فاقتدى بابيهِ وان كان دونهُ ذكاء لكنّهُ توفّق بعزمهِ الى الانتصار من الترك وطردهم من حاضرة اجدادهِ سنة ١٩٠٥ بعد ان حصرهم فيها زمناً طويلاً فأفنت المجاعة منهم قسماً كبيراً ثمّ فتك بالطوابير المرسلة لنجدتهم تحت قيادة رضا باشا وغالب باشا وفيضي باشا واغتنى بذخائرهم واسلحتهم وتعقّب آثار من فرّ منهم الى السواحل حتى كاد يستأصل شأفتهم وكان احد فيالق الاتراك احتلّ جبل شحارى فسار اليهم محمود ابن يحيى حميد الدين ففتك بهم واخرجهم من تلك الجهات وقتل اليمنيّون احمد عبيد الحارثي الذي كان انضمّ الى الترك فساعدهم على الامام يحيى . هذا فضلاً عن الامراض القاتلة التي انتشرت بين الاتراك فأودت بحياة الالوف منهم حتّى دُعيت اليمن بمقبرة الاتراك

فلما رأى السلطان عبد الحميد ان قوى جيرشهِ خارت دون ضبط اليمن فكّر في وسائل أخرى يصون بها عرضهُ ويبقي اليمن في جملة ممالكهِ فاوفد رسلاً والطافاً الى الامام يحيى ليؤلف قلبهُ بالمجاملة . ثمّ استدعى الى الاستانة بعض شيوخ اليمن ليطيّب قلوبهم ويسكّن خواطر مواطنيهم بوعدهِ لهم خيراً وبلّغ الامام يحيى انهُ يجعلهُ والياً على اليمن مدّة عشر سنين باسم الحكومة العثمانيّة ويعيّن لهُ فتات من الجند ليساعدوهُ في تنفيذ اوامرهِ

فكانت كلّ هذه الوسائل لا تقنع الامام وذويهِ وهم لا يرضون الّا باستقلال بلادهم . وأعلن في تلك الاثناء بالدستور العثماني فحاولت جمعيّة الاتحاد والترقي ان ترضي الامام يحيى بالانحياز الى الدولة وعظّمت في عينيهِ الدستور ونعمهُ . واذ لم

ينخدع الامام باقوالهم فاقاموا لهُ خصماً يدعى المهديّ الذبياني جرت بينهُ وبين يحيى بعض المناوشات ثمَّ اصطلحا على مقاومة الاتراك

فأرسلت من الاستانة قوَّات جديدة الى اليمن وحصلت عدَّة معارك من السنة ١٩٠٩ الى ١٩١١ أُصيب فيها اليمنيُّون ببعض الخسائر . ثمَّ دُعي الامام يحيى مع قومهِ الى الجهاد في الحرب البلقانيَّة فرضي بهِ وتعهَّد بارسال ١٠٠,٠٠٠ جندي للدفاع عن حوزة الاسلام على شرط ان تعترف الدولة باستقلالهِ فوعدوهُ خيرًا وتقرَّب الى الدولة لكنَّ الحرب البلقانيَّة انتهت قبل ان ينجز بوعدهِ

ثمَّ أُعلنت الحرب العموميَّة الاخيرة فسحبت الدولة العثمانيَّة جيوشها من اليمن لحاجتها اليهم وبقي الامام يحيى آمناً في بلادهِ . فسعت لديهِ الدول الاتفاقيَّة وطلبت منهُ الحياد وبغَضت اليهِ تركيَّة واحلافها وراعت لهُ خاطرًا في حكمهِ على بلادهِ مستقلًّا لكنَّ الامام اصرَّ على ثباتهِ في ولاء تركيَّة . وذلك في السنة ١٩١٧ وقد استولى على قنفذة من ثغور الخليج العربيّ . ولم يبلغنا بعد الهُدنة خبر عن شؤون تلك الجهات (لهُ صلة)

زجليَّة في وصف الغلاء والجوع والضيق

منذ مائة وثلاثين سنة

نشرها بحواشٍ ومقدمة الكاتب المتفنن عيسى اسكندر المعلوف صاحب مجلة (الآثار)

بعد مرور ثلاث سنوات على الحرب الضَّروس ومشاهدة ما تشيب له رؤوس الاطفال من اهوالها وقع لي توافق غريب . بينما كنتُ ابحث بين مخطوطاتي مستمرياً الحوادث السالفة وما قيل فيها عثرتُ بينها على سفينة وهي دفتر مستطيل قليل العرض فاذا فيه زجلية كأنما نُظمت لهذهِ الايام منذ ذلك العهد البعيد واليك الآن وصف هذه السفينة :

هي دفتر بطول نحو عشرين سنتيمترًا وعرض عشرة سنتيمترات يقع في ٧٨